• المحاضرة الأولى: مدخل إلى السّرديات العربية الحديثة والمعاصرة

مهاد:

قبل الخوض في حيثيات مضامين المقياس، لا بأس من تفكيك مكوّناته، يتألّف عنوانه من مركزين دلاليين "السّرديات العربية" و "الحديثة والمعاصرة"؛ حيث تشير الأولى بحسب السّياق العام الذي وضعت فيه إلى المادة المدوّنة التي سيتعرف عليها الطّالب ويشتغل عليها، أما الثّانية فتحيل إلى الفترة الزّمنية التي تؤطّر هذه المادة، وفيما سيأتي تفصيل مفاهيمي لما جاء هذا العنوتن المركّب:

1- في مفـهوم السّـرد:

أ- السّـرد لغة:

ورد في لسان العرب أنّ السّرد هو "تقدمه شيء إلى شيء تأتي به متّسقا بعضه في أثر بعض متتابعا. سردّ الحديث ونحوه يسرده سردا إذا تابعه. وفلان يسرد الحديث سردا إذا كان جيّد السّياق له (...) وسرد القرآن، تابع قراءته في حذر منه (...، وسرد فلان الصّوم إذا والاه وتابعه"[1]، أمّا معجم العين، فقد أورد فيه الفراهيدي تحت مادة سرد: "سرد القراءة والحديث يسرده سردا؛ أي يتابع بعضه بعضا، والسّرد جامع للدّروع ونحوها من عمل الحلق، وسمّي سردا لأنّه يسرد، فيثقب طرف كلّ حلقة بمسمار (بشكل متساو ودقيق)، فذلك الحلق المسرد"[2] المنسوج بانتظام وتابع وترتيب، وهو ما يشكّل الدّرع في الأخير.

من خلال هذا التّقديم اللّغوي للمفردة- حسب المعاجم العربية- يمكن القول: أنّ السّرد يقتضي بالضّرورة دلالة التّتابع والانتظام، وحضوره الاصطلاحي يقتضي ضرورة هذه المدلولات، وكأّيّ لفظة عربية تحمل مخزونا ثقافيّا ثريّا وقدرة على المطاوعة الدّلالية، فقد اتسع استخدامها العربي ليشمل كلّ مجال يتوافر فيه التّراتب والنّسج والنّظم والتّتابع.

---

[1]-ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت - لبنان، (دت)، مج 03، مادة سرد، ص: 212.

[2]- الفراهيدي، كتاب العين، تح: مهدي المخزومي والسامرائي، دار الهلال، القاهرة - مصر، (دت)، ج 07، مادة: سرد. ص: 226.

ب ـ السّرد اصطلاحا

أمّا من النّاحية الاصطلاحية، فهو مرتبط بدلالات مختلفة بحسب مجال الاستخدام، ليبقى "السّياق الذي يستعمل فيه هو الخليق بضبط المعنى الدّقيق الذي يعنيه "[3]، فالسّرد من منظور تلفّظي، هو: "النّشاط السّردي الذي يضطلع به الرّاوي، وهو يروي حكايته ويصوغ الخطاب النّاقل لها"[4]، وهو من زاوية الخطاب: طريقة مخصوصة في تقديم الحكي، أمّا من ناحية الصّناعة، فهو يأخذ دلالة أوسع وأشمل، فيطلق فيها: "على كلّ ما يتعلّق بالقصص فعلا سرديا أو خطابا قصصيا أو حكاية"[5]، وهي الدّلالة المقصودة تحت عنوان هذا المقياس الذي وردت فيه اللّفظة بصيغة الجمع السّرديات العربية الحديثة والمعاصرة).

ج- في مفهوم لفظتي" الحديث والمعاصر"

ترتبط لفظتا "الحديث والمعاصر" إضافة إلى الأدب العربي بكثير من الفروع المعرفية الإنسانية الأخرى كالفلسفة وعلم النفس وعلم الاجتماع وعلوم التربية...وهي جميعا تنازع في دلالة الاصطلاحين، كلّ فرع يقدّم مفهوما من موقعه وتخصّصه، إلّا أنّ مجملها يصبّ في رأيين رئيسين، هما:

- ✓ **الرّأي الأول**: يرى أصحاب هذا الموقف أنّهما وجهان لعملة واحدة، لا فرق بين الحديث والمعاصر، فهما بالنسبة إليهم مصطلحان بدلالة واحدة، مترادفان، تخلّقا بطريقة عفوية لمسمى زمنيّ واحد، يبدأ بدخول نابليون بونابرت مصر سنة 1798م إلى يومنا هذا.

- ✓ **الرّأي الثاني:** يذهب أصحاب هذا الموقف إلى القول بأنّ "الحديث " يبدأ من حملة نابليون على مصر 1798م، وفي هذا يتّفقون مع أصحاب الرّأي الأول ، وينتهي بنكبة م1948م، ليبدأ عصر أدبيّ جديد واكب مستجدات ما بعد النكبة، وهو ما أكسب نصوص الأدب أساليب جديدة تخالف وتختلف عن الأساليب القديمة التي كان معيارها الجمالي هو المحاكاة التسجيلية الوصفية إلى مفهوم جديد ارتبط بأحداث المجتمع ذي خصائص فنّية مغايرة جعلتها تدخل حيزا زمنيا جديدا حمل لفظة ودلالة المعاصرة ليصبح الفنّ انعكاساً حقيقياً أو شاهد عيان لمعطيات العصر.

---

[3]- محمد القاضي وآخرون، معجم السرديات، دار الفارابي، بيروت - لبنان، ط1، 2010. ص:246.

[4] - المرجع نفسه. ص: 243.

[5]- المرجع نفسه. ص: 246.

2- خصائص السّرد العربي القديم

أ- مفهوم السّرد العربي القديم

يُقصد به"كلّ الفنون الحكائية العربية القديمة التي تتوسّل الحكي في حبك متونها، يحتل فيها الرّاوي موقعا هاما في تقديم المادة الحكائية[6]، تشمل مجموعة كبيرة من الأشكال السّردية منها: الأسمار، والحكايات، الطّرائف، القصص، الأيام، السّير، المغازي، النّوادر المقامات، السّرد الصّوفي وغيرها من المنجزات، والملاحظ أنّ كان "التّسميات السّابقة كانت محدودة وضيّقة عن الشمول، أو كانت تحكمها رؤى خاصة، وهذا ما جعلها غير دقيقة، عكس المفهوم الجامع (السرد) الذي يرصد الظاهرة في مجملها.

هذا الزّخم السّردي عُدّ ديوانا حقيقيا للعربيّ في نظر كثير من النّقاد، أو "القول بأنّه الدّيوان المزاحم للشّعر على الصّعيد الواقعي"[7]. لذا عاد كثير من الباحثين إلى السّرد العربي القديم لتأصيل النّص المعاصر على اختلافه، وممّا يعكس مكانة التّراث السّردي تلك النّصوص التي تبوّأت مكانة في الآداب العالمية على سبيل الذّكر (ألف ليلة وليلة / كليلة ودمنة (بصورتها العربية / البخلاء/ رسالة الغفران / المقامات باختلاف مؤلفيها ...). مع الإشارة إلى أنّ بعض المواقف تنفي وجوده مبرّرها في ذلك عدم توافر المعايير السّردية المتعارف عليها حديثا لدى النّقاد في نصوصها، في حين نجد موقفا وسطا، يقرّ بوجود إرهاصات وبذور سردية، اشتدّ عودها بفعل المثاقفة والتراسل بين السّرد العربي والسّرد الغربي باعتبار هذه الأخيرة أكثر نضجا.

ب - مميّزات السّرد العربي القديم

تميّز السّرد العربي القديم بخصائص صنعت فرادته، من خلال مجموعة من الخصائص استقرأها النّقاد، نوردها فيما يلي:

✓ **الاهتمام بالمهمّش:** النّص السّردي القديم انطلق من المهمّش لإنتاج دلالاته، معبّرا عن كلّ ما يتضمّنه اليومي، مقدّما شخصياته بدلالاتها الإنسانية، فتبدي بذلك سردا خاصا بالبخلاء وآخر بالفقراء، وآخر يروي تحارب الرّحالة، وأخبار الثّائرين، وقصص المجانين، وغيرها من الخطابات. فنادرا ما ينطلق السّارد من المركز الذي هو خاصية سردية نألفها في متون النّص الحديث والمعاصر.

---

[6]- ينظر: سعيد يقطين، السرد العربي مفاهيم وتجليات، دار رؤية، القاهرة - مصر، ط1، 2006، ص: 86.

[7]- المرجع نفسه. ص: 70.

✓ * **عجائبية السّرد:** البعد العجائبي الخارق حاضر هو الآخر في بعض النّصوص السردية العربية القديمة في بناء مضامينها السّردية على الخارق وغير المعقول، فتأتي بدلالات رمزية، تنضح بالأسرار، ومن ذلك رسالة الغفران لأبي العلاء المعري، التوابع والزوابع لابن الشهيد، ألف ليلة وليلة، وبعض النّصوص التي اتسمت بالصّوفية (...). وهو ما شكّل موردا لعديد الرّوائيين في نصوصهم السّردية الحديثة والمعاصرة، على نحو ما وظّفه (لطّاهر وطّار) في رواية "القصر والحوات" 1973م. الرّوائي العراقي (أحمد سعداوي) 2013م، في رواية " فرانكشتاين في بغداد" .

✓ **التصريح بالمحفز** : يشغل المحفّز، سواء أكان خارجيا أو داخليا دورا رئيسا في بناء النّص السّردي القديم، وهذا بطلب أو حاجة خارج نصيّة أو تلبية لرغبة طالب للحكي؛ على غرار نصّ "الامتاع والمؤانسة" حين طلب أبو الوفاء المهندس من أبي حيان التوحيدي وصف مجالس أنس الوزير (بن سعدان)، كما يبني النص انطلاقا من محفّزات داخلية أي بطلب من شخصية من شخصيات النّص على النّحو الذي نجده في ألف ليلة وليلة حين طلب شهريار من شهرزاد تقديم الحكي.

✓ **اعتماد نظام إسناد الرّواية:** يسند الرّاوي فعل الحكي إلى طرف آخر، غالبا ما يكون افتراضيا للتّحرر من قيود الحكي، واستقطاب المتلقي وإيهامه بالحقيقة، ولذلك نجد أن الحكي القديم عادة ما يستهل بعبارات إسنادية، مثل ما ورد في المقامات "حدثنا" أو "حدث"، أو "حكى" أو "حدثني"، على غرار المقامة الأدبيّة بلفظ (حدّثنا)، أين اصطنع أبو الفضل أحمد بن الحسين بن يحيى بن سعيد راو بقوله:" حدَّثَنَا عِيَسى بنُ هشامٍ قالَ: اشتَهَيْتُ الأَزَاذَ، وأَنَا بِبَغدَاذَ، ولِيسَ معْي عقدٌ على نقد، فخَرَجْتُ أنتَهِزُ محالَّهُ حتّى أحلَّنِي الكَرَخَ، فإذَا أنَا بسَواديٍّ يسُوقُ بالجهْدِ حِمارَهُ، ويَطَرِّفُ بالعَقدِ إزَارَهُ"[8]،وهي عبارات مستقاة من تقاليد رواد الحديث النّبوي ورواة اللغة الذين سلكوا مسلكهم في تدوين الأخبار، وإثبات الرّوايات.

✓ **استخدام السرد العنقودي:** ويتجلّى ذلك في كثير من النصوص، أبرزها "ألف ليلة وليلة"، حيث يعمد الرّاوي إلى خلق قصة إطار [قصة شهرزاد و شهريار) تستوعب قصصا قصيرة تشكل أطراف الحكي، لتنتّظم وتتناسل بحسب متواليات القصّة الإطار، وهذا النوع من الحبك نجد له كبير الأثر في الروايات المعاصرة، كرواية " الحالم"- لـ(سمير قسيمي).

([8])-. بديع الزمان الهمذاني " من المقامة البغدادية

✓ **إدراج الوصف والحوار**: إضافة إلى ما تم ذكره من خصائص، نجد تقانتي الوصف والحوار حاضرة في النّص السّردي العربي القديم بشكل لافت، باعتبارهما ركيزة لغوية، وإضافة دلالية من شأنها تحرّك مجرى السّرد.